ألا أيها الليل الطويل ألا انجل

صحا امرؤ القيس بن حجر فى فجر اليوم التالى بعد إغفاءة يسيرة فى آخرِ الليل، فلقد كانت ليلته ساهدة مضطربة، ساورته فيها الهموم المُرَّة، فلم تترك له راحة فى رقاده؛ وغلبه الحزن منذ غادرته فاطمة غاضبة، ولم يقدر عن أن يصرف على أذنيه صدى ألفاظها القاسية؛ وكان أصحابه كلما بالغوا فى الاحتيال للتسرية عنه وجدوا شجونه تزداد ضرامًا، وكلما دخلوا به فى سمر خرج منه إلى نفثة مكروبةٍ وأنَّه محزونة، فحاولوا تسليته بالشراب فجعلوا له الخمر صرفًا غير ممزوجة؛ ولكن الشراب لم يزده إلا همًا وتوجعًا وإضرامًا لما به من الحزن. ولم يقدر أحد أن يستدرجه إلى الإبانة عن سرّ وجومه، فقد كان يظهر الضجر لمن يسأله عن سبب ضيقه، فكف أصحابه عن مساءلته، ويئسوا من منادمته. وانصرفت نفوسهم عن الأنس إلى مجلسهم، وقاموا عائدين إلى منازلهم، والشمس لا تزال تخطر أول خطراتها فى الشرق بين قطع السحاب البيضاء اللامعة.

ولم يبق مع امرئ القيس بعد انصراف أصحابه إلا ربيعة بن عمرو، وكان له صديقًا، وهو رجل من بطانة أبيه الملك، كان يأنس إليه، ويحب حلاوة شعره ويحنو عليه لرقة نفسه، ويعجب به لخفته فى ركوب الخيل ومهارته فى صيد الوحش.

وكان الملك حُجر قد عهد إلى ربيعة تنشئة ابنه منذ صباه وتدريبه في فنون الحرب وضروب الصيد، فكان له معلمًا وصديقًا، وطالت بينهما المعاشرة، فألفت في نفس كل منهما محبة لصاحبه، حتى كانا لا يأنس أحدهما بأحد مثل أنسه بصاحبه، ولا يحجب أحدهما عن الآخر نأمة من سر في صدره. فلما انصرف الجمع بقي ربيعة مع الفتى يريد أن يشيعه إلى خيمته، كما كان يفعل كلما اجتمعا.

وفيما كانا في سبيلهما قال ربيعة لامرئ القيس: «إن لك لشأنًا منذ الليلة».

فنظر إليه الفتى بطرف ثقيل من أثر الشراب، ولكنه كان لا يزال حافظًا لوعيه؛ ولم يحاول إنكار شيء عن صديقه، بل قال في زفرة قوية: «شأن أي شأن يا ربيعة!».

فقبض الرجل على ذراعه وقال: «هل آذاك أحد إخوانك بكلمة؟ هل تجرأ أحد على ذلك؟».

فأشار امرئ القيس برأسه إشارة استخفاف ضعيفة، وقال في دفعة: «وهل كنت لأصبر على الأذى؟».

فقال ربيعة بلهجة الاعتذار: «إذًا فما الذي يحزنك؟».

فمضى امرؤ القيس يقص على صديقه قصة الفتيات، حتى بلغ ذكر فاطمة وما كان منه ومنها واعتذاره لها، وردها إياه، وجعل يردد ألفاظها الأخيرة إذ تقول: «لست عليّ بأمين، أنت فتى داعر». وكانا قد بلغا عند ذلك فناء المنزل، فلم يشأ امرؤ القيس أن يدخل،

بـل عرج مع صاحبه إلى كثيـب صغير على مقربة منه، وجلس يتم له حديثه، ويروح عن نفسه بالإفاضة فى وصف ألمه وندمه.

وكان ربيعة يعلم من صديقه امرئ القيس سـر محبته لفاطمة، ولكنه كان يعلم كذلك أن حديث حبه لها قد شاع فى الناس وتحدثوا به فى مجالسهم، ورووا أشعار امرئ القيس فيها، وساروا بها فى قبائل العـرب يرددونها ويجعلونها مـدار أسمارهم فى نواديهم. فلما سمع ربيعة قصة صديقه وجم وصمت وأطرق لا يجد قولا.

فنظـر إليه الفتى بعد قليل وقال ضجرًا: «أراك لا تقول شـيئًا، أما من وسيلة إلى استرضائها؟».

فرفـع ربيعة رأسـه مسـرعًا وقـال فى شـىء من الدهشـة: «إلى استرضائها؟».

فقال الفتى متعجبًا من سـؤاله: «وماذا ترى فى أن تسـترضيها عنى؟ ألا تريد أن تحمل إليها ندمى واعتذارى؟».

قـال هـذا وأطـال النظـر إلى صديقـه الواجـم فـى شـىء من الخضوع والتوسل...

فقـال ربيعة مترددًا: «لقد كنت أحـب أن أكلمك فى هذا الأمر منـذ حين. إننى أعـرف ما يقوله الناس عنكمـا. حقًّا هى من بنى عمومتـك، ولكن هذا يجعلك أولى الناس بالحـرص عليها، وأبوها ممـا تعرف رجل مـن بيتك وإن كان فقيرًا، فهـو عامر بن معاوية ابن آكل المـرار. ولن يرضى عن تماديك فى التشـبيب بابنته. ولقد

سمعت أنه كان منذ حين عازمًا على الرحيل عن جوار أبيك، وأنت تعرف ما فى هذا من الضرر البالغ. فأبوك لا يستطيع أن يستغنى عن مثله، ولا يمكن أن يرضى عنك إذا كنت سببًا فى موجدته».

فقال الفتى فى عناد: «ولكنى أحبها».

فقال ربيعة فى صراحة أليمة: «تحبها؟ وهل يلهو المحب بمن يحبه؟».

فقال امرؤ القيس فى دفعة: «ألهو بها؟».

فقال ربيعة: «أليس تشبيبك بها يحمل معنى العبث واللهو؟».

فصمت الفتى لحظة، وقد تبين له أنه لا يقدر على دفع تهمة صديقه. فقال له ربيعة: «وأنت فوق ذلك امرؤ القيس بن حجر، ولن يرضى أبوك أن يزوجك بغير أكفائك من بنات أعمامك الملوك: معديكرب، أو سلمة، أو شرحبيل أو عبد الله بنى الملك الحارث».

فقال امرؤ القيس مسرعًا: «وهى ابنة عمى كذلك، وأنا أحبها».

فقال ربيعة فى قسوة: «أنت واهم، ما هى إلا نزوة من نزوات الشباب. أنت تحبها كما تحب سواها».

فثار الفتى غاضبًا وقام على رجليه كأنه يريد أن يضرب خصمًا، وقال فى صيحة: «كذب من قال هذا».

فقال ربيعة ملاينًا: «أنت تعرف محبتى لك وشدة رغبتى فى خيرك، فلا تظن أننى أقول ما أقول إلا حرصًا عليك وتأدية لحق أبيك وآلك علىّ».

فجلس الفتى وقال ولا يزال مهتاجًا: «أتسمى هذا العبث الذى أعبثه أحيانًا حبًّا لسواها».

فقال ربيعة مصرًّا على رأيه: «أنت فى مكان ولدى وإن لم أكن كأبيك. أنا أعرف ما ينطوى عليه قلب مثلك، فإننى ما زلت رجلا فتيًّا لم أفقد بعدُ شبابى. إن الذى يحب لا يستطيع أن يعبث. إنك لا تحبها، ولكنك تريد أن تفوز بها لأنها تقاومك، وتمتنع عليك. بل إنك لتعبث بها إذا استطعت».

وكأن هذه الكلمات كانت طعنات مسددة إلى قلب الفتى، وأحس أن الرجل قد أهانه، فثارت عزته وتذكر أن ذلك الذى يطعنه هذه الطعنات ما هو إلا تابع له ولأبيه، فكيف يجرؤ عليه بمثل هذه القالة، وبلغ منه الغضب مبلغًا، فأفلت رأيه من زمامه، وامتلأت نفسه بالكبر، وكأن أثر فعل الخمر ما زال باقيًا قد هزه فأضعف فيه حكم العقل، فنهض غاضبًا ودفع الرجل فى صدره بجُمع يده فألقاه على جانب الكثيب، ومضى نحو خيمته مترنحًا من الغضب، فدخل فيها واستلقى على فروة فى جانبها، وجعل يبكى ويتمرغ، ويئن أنينًا موجعًا.

قام ربيعة يجر رجليه إلى بيته، وقلبه مفعم بالأشجان المتضاربة، حتى ذهب إلى خيمته، فنضا عنه ثيابه واستلقى على فرو، وجعل يفكر فيما كان بينه وبين الفتى وهو فى حيرة من أمره، أيفضى بالأمر إلى أبيه الملك حجر، أم يحاول مرة أخرى

أن يقومـه بالنصيحة والرفق؟ وكانت الإهانة التى أصابته من الفتى تثيره وتصرفه عن محبته له حينًا، ثم لا يلبث أن يعود إلى نفسـه فيلتمس له الأعذار من نزق شبابه وحرارة قلبه.

قضى امرؤ القيس مسـاء الليلة بعد ذلـك لا يطمئن على جنب، ولا يستقر فى مجلس، فخرج إلى الفضاء المجاور لبيته وجعل ينظر حوله إلى القمر السارى بين السحب ويتنفس أنفاسًا حارة بين حين وآخر، ثم اهتزت نفسـه فجعل يتغنى بأبيات من الشـعر أودعها ما تختلج به نفسه من الشجون فقال:

أفـاطـمُ مهـلا بعـضَ هـذا التـدلـل
وإن كنتِ قد أزمعت صَرْمى فأجملِى
وإن كنت قد ساءتـك مـنى خَليقـة
فسُلى ثيـابِى من ثيـابك تَنسُـل
أغـرك مـنى أن حبـك قـاتلـى
وأنك مهمـا تـأمـرى القلـب يَفعـل؟
ومـا ذَرَفـت عينـاك إلا لتضـربى
بسهمـيك فى أعشـار قلـب مقتّـل
تسلـت عمـايات الرجال عن الصِّـبا
وليـس فـؤادى عن هـواك بمنسـل

ثم سـكت قليلا وجعـل يتذكر ربيعة وما أصابـه منه، وأحس بشىء من الندم على ما فرط منه، فلقد كان الرجل يخاصمه فى فاطمة

ولا يقصد إلا خيره، وتذكر إهانته له جزاء على صداقته وإخلاصه، فزاد ألمه وأحس كأن رأسه يعصر عصرًا، فجعل يهزه هزًّا عنيفًا كأنه يريد أن يبعد عن خياله تلك الصورة المؤلمة، صورة دفعه لصديقه تلك الدفعة المنكرة التى ألقته طريحًا فوق الكثيب على غِرَّة منه، ثم صورته وهو ينظر إليه عاتبًا جريح القلب صامت اللسان.

حاول امرؤ القيس أن يصرف عن خياله تلك الصورة، ولكنها لم تبعد وبقيت ماثلة، تزيد الفتى ألمًا على ألمه، وجعلت دموعه تجرى على صفحتى وجهه وقال فى صوت أجش من أثر البكاء:

ألا رب خصم فيك ألْوَى رددتُه نصيحٍ على تَعذاله غير مؤتل

ثم غلبه الشجن فقضى ساعة وهو فى نشيج مرّ. وكأن ذلك البكاء قد خفف عن قلبه بعض الألم فتنفس نفسًا عميقًا ثم رفع رأسه ونظر حوله إلى الفضاء وقال:

وليل كموج البحر أرخى سُدولَه علىّ بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطّى بصُلبه وأردف أعجازًا ونآء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلِ بصبح وما الإصباح منك بأمثَل
كأن الثريا عُلّقت فى مَصامها بأمراس كتان إلى صم جندل

ثم أكب على جانب الكثيب جاعلا رأسه على يديه. ومضى عليه فى هذه الحال حين طويل حتى كاد الليل ينصرم، فأغفى إغفاءة قصيرة عند وجه الفجر، ولم يلبث أن صحا منها فرأى خيوط الفجر

تنبثق من الأفق الشرقى فاترة، وتلقى على الأرض سلامًا لا يجد له صدى فى نفسه.

وجـال ببصره فى خط الأفق جولة خالية لا يقصد بها شـيئًا، فما راعه إلا أن رأى إبلا محملة تسير فى تجاه الجنوب يسعى بها رجل طويل يضرب فى أكبادها يستحثها فى المسير ومن ورائه فتية يسوقون الظعائن عليها هوادج النساء فقام مسرعًا يسائل عن هذا الركب المبكر. وخفق قلبه إذ خطر عليه خاطر سـنح سنوح البرق. أيكون هذا الركب المرتحل سـائرًا بفاطمة؟ أيكون أبوها قد علم بما كان منه، ولما لم يرد عـداوة قومه وخشـى قطيعة الملك حجر آثر أن يرحـل بأهله يلتمس النجاة من العار؟ ما كاد هذا الظن يداخله حتى وثب ذاهبًا نحو منازل عامـر أبى فاطمة وكانت على مقربـة من منازل آل حجر. فلما بلغها لم يجـد بهـا إلا آثارًا من أثافىَّ المواقد وأسـوار من الطين كانت حول الخيام لتحميها أن تتسرب إليها مياه سيول الشتاء. فكاد لبه يطير، وأخـذ يعدو تجاه الأفـق البعيد غير مبال ما فى سـبيله من حجارة تعثره، أو رمال تشـق عليه؛ وما زال يجرى وهو مستطار اللب حتى كلَّ وعجز عن مواصلة العدو. فانبهر فى طريقه واضطر أن يسير سيرًا مضطربًا، وصدره يضيق بأنفاسه من أثر الجهد، وزاده تعبًا ما كان به من أثر السهاد والهم فى الليلة السابقة.

ولكنه رأى أنه لن يسـتطيع أن يلحق بالركب إذا هو سـار ذلك السـير البطىء، وثارت نفسه عندما تصور أن الحبيبة سوف تصبح

فـى ديار أخرى وتبعد عنه بعد ذلك أبدًا فلا يراها. وجعل يسـائل نفسـه: أيكون ذلك اليوم حقًا آخر عهده بهـا؟ أيكون ذلك الموقف المـزرى الذى وقفـه منها آخر موقـف بينهما؟ أتكـون آخر كلمة يسـمعها منها تلـك الطعنة النافذة التى رمته بهـا؟ وما كاد يفكر فـى ذلك حتى اندفع يجرى مرة أخرى وهو لا يكاد يجد الأنفاس، فما زال يحمل على نفسه فى العدو ويغلبها على المضى، حتى عجز وتخاذل وخر إعياءً بين شـجيرات من السـرو مجتمعة على جانب كثيب، ثم أغمى عليه.

لم ينـم ربيعة بن عمرو تلـك الليلة بعد ما تـرك امرأ القيس، فظل ساهدًا حتى طلع الفجر، فقام إلى رأس ربوة مجاورة ينفس عن صـدره ما كان فيه من الضيق والغضب، فلما جال ببصره فيما حوله رأى شبحًا يجرى ويتعثر فى الرمال فتبينه فإذا امرؤ القيس يعدو فأتبعـه بصـره متعجبًا أين يقصد، ثم رأى الركب المرتحل يسـعى مجـدًا عند الأفق وامرؤ القيس يحاول الوصول إليه، فأدرك حقيقة الأمر ولكنه أحس فرحًا يدب إلى قلبه وبدأ همه يسرى عنه.

ثـم رأى امرأ القيس يعجـز فى الجرى، ورآه بعد ذلك يسـقط خائـرًا، فأحـس كأن طعنة أصابت قلبه. فلقـد كان للفتى فى قلبه مكانـة لا يدانيـه فيها أحد مـع كل ما بدر منه. فقام مسـرعًا إلى راحلته فركبها وأسرع فى السير حتى بلغ موضع الفتى ونزل إليه، فجعل يعالجه ويدلك أعضاءه حتى عاد إليه وعيه.

فتح الفتى عينيه فوقعتا على صديقه الذى آذاه، ورآه مكبًّا عليه وقد ارتسمت على وجهه أمارات الجزع والحزن، فحسب نفسه فى حلم وقال: «من أنت؟».

فقال ربيعة فى أسى: «صديقك ربيعة».

فمد الفتى يده فأخذ بيد ربيعة فقبلها وأنزل عليها دموعه وقال بصوت ضعيف: «أقد رحلوا؟».

فصمت ربيعة وقال كأنه يعزيه: «تجلد يا صديقى. تجلد ولا تهلك نفسك أسى».

فأعاد امرؤ القيس سؤاله وقال: «أقد رحلوا؟ أرحلت فاطمة؟».

ثم وضع رأسه فوق يديه وهو مكب على الرمال وأخذ يبكى بكاء مرًّا. فتركه ربيعة يمضى فى بكائه مكتفيًا بأن يمسح على رأسه بيده مسحًا رفيقًا، فقد علم الرجل أن فى هذا الدمع شفاء لقلب الفتى الجريح.

بعد ساعة رضى الفتى أن يعود مع صاحبه، فساعده ربيعة على الركوب وركب ردفه عائدين إلى الحى فبلغاه قبل أن تعلو شمس النهار.

وقضى امرؤ القيس بعد ذلك أيامًا طريح الفراش فى حمى هدت قواه وكادت تقضى عليه. واهتزت منازل بنى أسد وغطفان لمرضه، واشتد جزع أبيه حجر عليه، فكان لا يفارقه ليلا ولا نهارًا، فقد كان امرؤ القيس أصغر أبنائه وأحبهم إلى قلبه مع ما كان يسمع

من أنبـاء لهـوه ومـا كان يبلغه أحيانًا من شـعره فـإن كان الفتى يضطرب فى شـبابه ويطيع فتون هواه ويترنم أحيانًا بالشـعر كلما طرب أو اهتز قلبه، فهو ابنه الرقيق القلب، الوديع القول، الفارس الكامل والصائد البارع السـديد الرماية؛ فكان الأب لا يزال يترقب ذهاب الصبا والفتون عن ولده الحبيب، ولا يزال يرجو أن يعود إلى الجد مع موالاة النصح العاطف والإرشاد الشفيق.

وأفـاق الفتى بعد أيام طويلة، فكان أول ما وقع عليه بصره وجه أبيـه الحزين، والدمع يبل لحيته، ووجه صديقه ربيعة وقد أمضه الحزن عليه وأنحله.

وعـادت القـوة إلى امرئ القيس رويدًا حتى اسـتطاع أن يسـير وأن يركب، وأن يجالس ويسـامر، وينادم وينشد، ولكنه لما استتم الشـفاء لم يعد إلى طبعه الأول، ولم يسـترجع نفسه الأولى الوديعة المرهفـة الحس. بل قام بنفس جديدة وطبع غريب حتى لكأنه خلق بعد المرض خلقًا جديدًا.

* * *